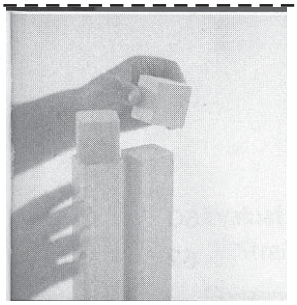

1 الفصل الأول
مقدمة

يجب أن لا تضع ثقتك بأية معلومة جاءت بعد تجربة أو اختبار حتى تحتضنها أو تؤكدها نظرية

Sir Arthur Eddington

أعطنا نظريات، نظريات، ودائماً نظريات

James Mark Baldwin

لدينا نظريات خاصة بالنمو، ذلك لأن الملاحظين للسلوك البشري يشعرون بنوع من الفضول والاهتمام بما يفعله الأطفال أو البالغون. فقد يتوقع طفل عمره ثلاث سنوات أن بداخل علبة الأقلام أقلام رصاص بالفعل، وبعد أن تفتح امامه يجد شموعاً؛ عند ذلك ينطبع في ذهنه دائماً أن هذه العلبة لا تحتوي إلا على شموع. ويعتقد الطفل في عمر الخامسة أن توزيع الأزرار في صف واحد يزيد من عددها؛ كما أن الطفل في مرحلة المدرسة يستخدم استراتيجية جيدة لحل مسألة جمع، وبعد ذلك بفترة قصيرة يستخدم طريقة أبسط لحل المشكلة نفسها. ويختار المراهق شخصية معينة دون النظر والتمعن في اكتشاف باقي الشخصيات الممكنة. ويحول البالغ حلمه إلى محاولة مقنّعة للتفاعل مع اضطرابات الطفولة.

يحاول علماء النمو أن يستخلصوا الحقائق من خلال تلك الملاحظات، ويضعوا نموذجاً لمرحلة الأنسان من الطفولة المبكرة مروراً بالطفولة المتأخرة أو المراهقة. وبعض النظريات التي سوف نقوم بتحليلها كبيرة وشاملة وغالباً ما ترتبط بعالم معين من مثل بياجيه أو فرويد أو أريكسون أو ڤيجوتسكي. وبعض النظريات تكون على شكل مجموعة مقاربات تحت عنوان "نظرية عامة" أو مجرد "اطار" من مثل نظرية التعلم الاجتماعي، معالجة المعلومات، الأنظمة الديناميكية، دراسة السلوك الحيواني وغيرها من نظريات التطور؛ ولا يشترط بالضرورة ارتباطها بشخص معين. وهناك نوع يسمى "بالنظريات الدقيقة" وهي التي يتحدد مضمونها بمعالجة جزئية خاصة بجانب محدد من النمو. ومن أمثلة ذلك "نظرية الفكرة" أو "نظرية النظرية " The Theory Theory" والتي تعنى بتحليل مفاهيم الأطفال تجاه مجال معين من مثل العقل.

هناك بعض النظريات تعد خارجية المنشأ – بعيدة عن مجال النمو – ويتم تطبيعها في مجال علم نفس النمو من مثل: نظرية التطور، معالجة المعلومات، نظرية الأنظمة الديناميكية وعلم النفس الثقافي. ويرى عدد من علماء النمو أن هدف النظرية توجيه أسئلة جديدة خاصة بالنمو أو تقديم تفسير جديد للنمو ثم ترجمة النظرية إلى إطار تطوري (تنموي). وعلى هذا فبناء النظرية في مجال علم نفس النمو يعتبر عملاً مثيراً، ديناميكياً، يتأتى من مصادر متعددة. وتتنوع محتوى النظريات ولكن جميعها تزودنا برؤى للسلوك البشري وتعمل على تغيير نظرتنا إلى العالم.

إن هذا الكتاب لا ينقل فقط محتوى النظريات، ولكنه أيضاً ينقل مشاعر العلماء واهتماماتهم لدى قيامهم بتأليف نظرية أو تبني أخرى. وفي بعض الحالات تستأثر بعض

الملاحظات – مثل تلك التي ذكرت سابقاً – خيال الباحثين وتخلق جواً من الأثارة ونوعاً من التطور في مجال علم النفس. انهم ينظرون إلى تلك السلوكات المثيرة كأسرار أو ألغاز ينبغي أن تحل. وفي حالات أخرى تفيد بعض الأفكار في توسيع رؤيتنا لطبيعة النمو. فنجد مثلاً أن فكرة بياجيه القائلة :إنّ العمليات العقلية للبالغين ترجع أصولها إلى سلوكيات حس حركية في مرحلة الطفولة المبكرة، وعملت على فتح الطريق لوجود طرق جديدة لدراسة النموالمعرفي. وتقدم كل نظرية معلومات هامة عن الطبيعة الأساسية لنمو الانسان؛ وحتى يتسنى لنا فهم دور هذه النظريات علينا أن نعرف أولاً الطبيعة العامة للنظرية. وهنا نطرح أسئلة عامة حول النظريات:

1- ما النظرية؟

2- ما مفهوم نظرية النمو؟

3- ما قيمة نظرية النمو؟

4- ما الموضوعات الرئيسة في علم نفس النمو التي تناقشها النظريات؟

ما هي النظرية؟ WHAT IS ATHEORY

هذا سؤال يبدو بأنه بسيط. وحتى يجيب عليه متخصص في العلم يلجأ إلى طرح سؤالين آخرين هما:

1- هل نتساءل عما ينبغي أن تكون عليه النظريات أم أنه يتضمن وصفها بالفعل؟

2- هل نتساءل عن المفهوم النظري المعروف للنظريات أم عن المفهوم العلمي المطبق عملياً؟

ويتعلق السؤال الأول بالتمييز بين النظريات المثالية والنظريات الحقيقية أو الواقعية ويعبر عن الحقيقة البائسة للحياة العلمية وهي أن نظرياتنا قاصرة لتحقيق اهدافها. فالنظريات عادة لا تصل إلى مستوى الكمال في ما يتعلق بشكلها النهائي؛ أما النظرية العلمية الكاملة فهي عبارة عن مجموعة من الحقائق المرتبطة والتعريفات والبديهيات والمسلمات والفروض والمتغيرات المتداخلة والقوانين والمبادئ وهكذا.

وبعض هذ السلسلة المتداخلة من الحقائق والتي يتم التعبير عنها إما شفهياً أو على شكل معادلات رياضية، يتم استنتاجها منطقياً من سلسلة من حقائق أخرى. إن وظيفة هذه السلسلة من الحقائق المترابطة تكمن في وصف تراكيب (بناءات) يصعب ملاحظتها وآليات أو معالجات ثم العمل على ربط بعضها ببعض وبأحداث قابلة للملاحظة. وقد تكون الطريقة المثلى

لمقارنة هذه الحقائق هي توضيح أنها تحتل مستويات مختلفة ضمن النظرية. بمعنى أنها تختلف في بعدها عن السلوك الملاحظ، وبالتالي فكلما ابتعدت الحقيقة عن السلوك الملاحظ كلما قل امكانية تأكيدها أو رفضها بالدليل العلمي.

وتوجد مجموعة من المبادئ –أبعد ما تكون من السلوك الملاحظ – يتم قبولها دون اختبار. مثلاً في نظرية بياجيه هناك مبدأ يقول: إنّ التفكير عملية منظمة. وتعتبر هذه المبادئ واضحة وتكشف عن نفسها (قائمة بذاتها) لدرجة أن الباحثين انفسهم قد لا يكونون على وعي بها. وكلما انتقلنا إلى مستوى أقل نجد حقائق قائمة على الفروض وهي عبارة عن مفاهيم تقرر وجود علاقات بين الاحداث، بين الأشياء وبين الخصائص أو المتغيرات. وهذه التركيبات (مثل: النظام العقلي والتفكير العكسي العقلي "المقلوبية" في نظرية بياجيه) تكون غير ملحوظة بطبيعتها ولكنها تشير إلى سلوك يمكن ملاحظته. يقوم الباحثون بترجمة التراكيب الفرضية إلى فرضيات قابلة للاختبار تمثل حقائق مسلمة عن العلاقات بين الأحداث، والأشياء، والخصائص والمتغيرات. (من بين فروض بياجيه أن الطفل يميل إلى تكرار الأفعال الممتعة له مثل الخشخشة أو الفرقعة)، ويصبح الفرض حقيقة عندما يؤكده البحث بصورة كافية. وباكتمال الحقائق وتجميعها، يتم ربطها معاً في إطار قانون معين حيث يعتبر هذا القانون تقريراً عاماً يبين العلاقة القائمة بين مجموعة من الحقائق.

إننا نقوم بتشكيل النظريات عن طريق البحث الدائب للمعلومات (الملاحظات العملية المتكررة) والربط بينها وبين النظرية. تؤثر الحقائق الجديدة على النظرية وتؤدي التغيرات في النظرية إلى تولد تجارب جديدة وبالتالي إلى وجود حقائق جديدة. وتؤدي الحقائق المتغيرة أيضاً إلى تغيير النظرية وهكذا تستمر الحلقة. ويمكن أن تقدم الملاحظات التجريبية دليلاً مؤكداً للنظرية لكنها لا تثبت صحة النظرية، لأن الملاحظات المستقبلية يمكن أن تقدم دليلاً ينافي ذلك. نلاحظ أيضاً أن بعض النظريات لا تقدم أكثر من تلخيص للحقائق أو المعلومات. وفي نظرية التعلم لسكنر نجد حقائق معينة مثل (إذا حصل الشخص على التعزيز في محاولات عدة يزداد حدوث الاستجابة نفسها). ومثل هذه النظريات المتوافقة مع المعلومات تكون أيسر في اختبارها حيث من السهولة عدم تأكيدها. وعلى الجانب الآخر نجد اللاشعور عند فرويد أو التوازن عند بياجيه تتضمن على أفضل حال علاقات متباعدة وغير مؤكدة عن السلوك الملاحظ.

ونظراً لوجود تباعد بين الأفكار النظرية والمعلومات يصبح من الصعب اختبار النظرية، وقد

تكون مثل هذه النظريات مفيدة فيما بعد في تفسير الحقائق أو المعلومات نفسها ولذا تبقى لسنين قادمة بغض النظر عن دقتها.

من المعلوم أن علماء النفس يقومون بالحكم على النظريات من خلال مجموعة من المقاييس. فالنظرية ينبغي أن تكون صحيحة من الناحية المنطقية، بمعنى أن تكون متوافقة داخلياً ولا تتضمن حقائق متناقضة مع بعضها البعض. كما ينبغي أن تكون النظرية سليمة من الناحية التجريبية ولا تتعارض مع الملاحظات العلمية. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تكون النظرية واضحة، قابلة للاختبار، ومختصرة، قائمة على فروض قليلة وما شابه ذلك كلما أمكن. وأخيراً ينبغي أن تغطى النظرية مجالاً واسعاً من مجالات العلم وأن تهضم وتدمج البحوث السابقة.

وقد تضمن مجال علم النفس نظريات عامة قليلة منذ نشوئه، ولا توجد نظرية حديثة – تقريباً – في النمو تندرج تحت هذا التصنيف. وتقدم لنا المتطلبات السابقة نموذجاً للحكم على صحة أي نظرية أو نموذج بصفة عامة فيما يتعلق بالنمو. ويمكننا التساؤل عما إذا كانت النظرية مؤهلة للوصول إلى مستوى النظريات العلمية القابلة للاختبار أو لا؟

وتمثل نظريات النمو بصورتها الحالية اطاراً مرجعياً لاختبار تغيرات السلوك بمرور الزمن. فعلى سبيل المثال: توجه نظرية بياجيه الانتباه نحو تنظيم الفكر بقدر أكبر من الاهتمام بالمعلومات المحددة، وإلى التغيرات الحادثة في مجال النمو أكثر من الاهتمام بزيادة قدر المعرفة وحجمها، وإلى تكوين أبنية نشطة للمعلومات لدى الأطفال أكثر من معالجتهم السلبية للمعلومات.

ويستعمل مصطلح "نموذج" غالباً في النظريات اليوم ويستعمل الباحثون كذلك (اصحاب النظريات) النظريات غير الأساسية والتي تكون محدودة الأطار. وقد تتمثل النماذج أحياناً بأشكال مرئية من مثل رسم المربعات والاسهم والصناديق لبيان تدفق المعلومات أثناء عملية التفكير. وقد تأخذ النماذج شكل التناظر كأن يشبه العقل بالكمبيوتر.

أما بالنسبة للسؤال الثاني للعلماء فهم يميزون بين النظريات كما هي مدونة في الكتب وكيف يمكن تطبيقها في المجتمع العلمي.

إن النظرية في صيغتها المنظمة والمنمقة في النصوص (الكتب) تحمل تشابهاً ضعيفاً لكيفية توجيه النظرية للسلوك الذي يقوم به أفراد متخصصون حقيقيون يقومون بأبحاث حقيقية. وفي هذا الجزء الخاص ببناء النظرية نطرح الرؤية التقليدية لبناء النظرية.